أ. كهلان بن نبهان الخروصي
المستشار الشرعي بمكتب الافتاء بسلطنة عمان

الصحوة الإسلامية والعلم الشرعي: ضرورة وتلازم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد فهذه ورقة عمل مختصرة أضعها بين يدي هذا المؤتمر الدولي راجيا الله تعالى قبولا، وعسى أن أحظى بمنّه وتوفيقه.

و موضوع الورقة هو افتقار الصحوة الإسلامية إلى العلم الشرعي، بينت فيه سبب هذا الافتقار وكشفت فيه عن الباعث الذي ينبغي أن يوجه الصحوة الإسلامية صوب أساس علمي شرعي أصيل، ثم تحدثت عن أثر هذا التوجه حين تأخذ به هذه الأمة الإسلامية، وهذه الآثار في الحقيقة هي في الوقت ذاته تشخيص لمظاهر سلبية ظهرت - ولا زالت تتنامى - في مسيرة الصحوة الإسلامية، إلا أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أني أتيت على كل ما يكتنف الصحوة في علاقتها بالعلم الشرعي ؛ لأني لم أشأ أن أكرر ما هو معروف من قضايا وتحليلات ولا أن أسرد أدلة حول ما هو متفق عليه.

ولا ريب أننا مهما وصفنا وحللنا، فإنه لا يمكن أن نحقق ما نصبو إليه إلا بالعمل الجاد الدؤوب، المبني على دراسة وتخطيط، وعلى تعاون وتكامل في الجهود المباركة من رواد الإصلاح ومن أهل الرأي والنفوذ السياسي . عسى الله أن يعين ويوفق الجميع إلى مايبلغ أفضل الغايات، وما يحقق لهذه الأمة العزة والكرامة والنصر والرقي، وما ذلك على الله بعزيز.

مقدمة:

لا ريب أن الصحوة الإسلامية أصبحت ظاهرة لا تحتاج إلى برهان، ومظاهر هذه الصحوة تبدو في سلوك أبناء هذه الأمة - رجالا ونساء، شيبا وشبانا- طرقَ الصلاح والهدى ، وفي الحفاظ على شعائر هذا الدين، والغيرة على حرماته ومقدساته، وهذا من فضل الله تعالى على عباده، ففي بزوغ شمس الإسلام الخير للعالم والإنسانية، والحياة الطيبة للناس كافة، ولكن الذي يشهده العالم اليوم، وما تمر به الأمة الإسلامية – أو لعل الأصوب أن نقول : ما يمر بالأمة الإسلامية لأن الفاعل في الأغلب غيرها وهي جامدة تمر عليها الأحداث – من فتن وتغيرات، وما يشهده البشر من نظريات وأفكار، مع الثورة الهائلة في وسائل الاتصال المعاصرة، جعل أمر إعادة توجيه الصحوة الإسلامية ضرورة لا ينبغي الاختلاف عليها، بل لا بد من المبادرة الجادة وإلا فات الوقت وتقاذفت السفينةَ أمواجٌ من الشبهات والضلالات عاتية، وحينها سنلوم أنفسنا ولات ساعة مندم .

لماذا تشتد الحاجة إلى ركيزة علمية شرعية في مسيرة الصحوة الإسلامية؟

وهنا أود أن أركز بكل صراحة ووضوح على ضرورة توجيه الصحوة الإسلامية صوب العلوم والمعارف الشرعية الأصيلة، حينما نريد لها الاستمرار والفاعلية، وحينما نريد لأمتنا مستقبل عزة ونصر وكرامة . فقد أخذت شبابَ الإسلام عواملُ أبعدتهم عن

التزود بالزاد العلمي الشرعي الكافي لتحصينهم ضد أهواء أنفسهم أولاً وغوايات واقعهم ثانيا، ويمكن أن تجنح بهم بعيدا عن حقيقة رسالتهم في هذه الحياة، وعن التصور الصحيح لمراشد دينهم وهداياته، هذه العوامل تتعدد في كمها وتتفق في أثرها، وفي مقدمتها - لا شك - الأوضاع السياسية، والظروف الاجتماعية، والنظريات (أو التنظيرات) الفكرية والمذهبية، ...الخ مما هو معروف – ولو إجمالا - من عوامل وأسباب.

وكان يمكن لهذه العوامل أن تكون سببا كافيا يدفع بالمصلحين والمربين والدعاة والغيورين على هذا الدين إلى الإلحاح والحرص على تأصيل قاعدة علمية شرعية، وغرس معارف العلوم الإسلامية لدى أبناء هذه الأمة الإسلامية، ولكني أحسب أننا عندما نحاول تجديدا وتقويما في مسيرة الصحوة الإسلامية ؛ فلا بد أن تكون منطلقاتنا سليمة موافقة لمقاصد الشرع الحنيف، ولهذا فمنطلق هذا التجديد وذلكم التقويم لا ينبغي أن يكون الظروف المعاصرة والأوضاع المحدقة بهويتنا وثقافتنا، لأن هذه متغيرة متقلبة شأن كل صروف الدهر وأحوال الزمان، ولأن ما نفعله ساعتئذ لن يعدو أن يكون ردة فعل تتلاعب بها العواطف لا العقل، ويبتعد عن التخطيط السليم الصادر عن تصورنا الإسلامي الراشد، وقد ينساق أيضا وراء العوامل المؤثرة – سياسية كانت أو اجتماعية أو نفسية أو فكرية – فيسلك مسالكها ويتبع أساليبها التي لا تراعي الوسائل قدر مراعاتها للمقاصد! وعلى هذا كان لا بد أن يكون منطلقنا في هذه الدعوة إلى ربط شباب الصحوة الإسلامية بهويتهم الثقافية وبالعلوم والمعارف الشرعية في هذه المسيرة "التجديدية التصحيحية" نابعا من عقيدتنا وتصورنا أي من ديننا ذاته، فالإسلام يأمرنا بالعلم، والله عز وجل جعل للعلماء منزلة رفيعة، والقرآن الكريم يتحدث عن العقل والعلم والنظر والتدبر والتفكر في سياقات متعددة ومناسبات كثيرة، منها ما يأتي في سياق الأمر والنهي، ومنها في معرض الوصف بالمدح والثناء ومنها في مقام النعي والإنكار (على أقوام آثروا أضداد تلكم المعاني)، ومنها في مقام القصص

والأخبار، ومنها في موضع بيان الحكمة من التشريع ومنها عند إقامة الحجة وردها إلى آخر المناسبات والسياقات المعروفة في الاستخدام القرآني.

ولست هنا بصدد عرض الأدلة الشرعية الواردة في حكم العلم الشرعي وفضله، فهذا أمر متفق عليه، ولكني أود أن أعتمد على هذه المسلمة في التأكيد على أن أي توجيه للصحوة الإسلامية لمزيد من التكوين العلمي والمعرفي الشرعي لا بد أن يكون أساسه أن ديننا يأمرنا بذلك. فالإسلام دعوة للعلم والمعرفة، وأولى العلوم وأشرفها العلم بالله عز وجل وبشرعه الشريف، ولهذا كان شباب الصحوة في واقعنا المعاصر أحوج ما يكونون إلى التزود بالعلوم الشرعية الأصيلة، وبتكوين ثقافة إسلامية متينة، امتثالاً لأمر الله تعالى أولاً وآخرا، لا ردة فعل للأحداث العالمية ولا لأن الواقع يفرض علينا ذلك بما جره الجهل على هذه الأمة وعلى المسلمين من قطع مظلمة من الفتن، وما أحدثه هذا الجهل من تشويه للإسلام والمسلمين، وما جرّه من الطيش والتهور لدى طائفة من أبناء هذه الأمة، ليس شيء من هذه الأسباب – مع أهميتها ووجاهتها – ينبغي أن يكون دافعنا إلى هذه الدعوة ، لما تقدم من الأسباب ، ولأنها – أي هذه الأسباب – في حقيقتها تذوب عندما يكون الباعث العبادةَ والامتثال ابتداء، وهذا يجعل من هذه الدعوة مبدأ مقررا مداوما عليه، لا تغير حقيقته عوادي الزمان، ولا تخمد جذوتَه المصائبُ والأحداث التي تتناوش أمتَنا، ولا يخضع لردود أفعال آنية تنطفئ ولّما تتقد. ويوم أن يأخذ بزمام الصحوة الإسلامية مربون واعون بهذه الحقائق، منطلقون من هذا الأساس التعبدي، مدركون أن الغاية رضا الله تعالى والتبصر بأحكام شرعه والعمل بها في كل مناحي الحياة ؛ فإن الصحوة الإسلامية سوف تجني ثمارا يانعة، وإن طالت فترات الجدب، وستتنزل على الأمة رحمات من الله وبركات بإذن الله تعالى القادر على كل شيء، ولا أريد أن أكرر ما هو معلوم من الآثار التي ستنتج عن سلوك هذا المنهج في توجيه الصحوة الإسلامية، وإنما أريد أن أنبه على جملة من هذه الآثار التي تحتاج الأمة إليها فعلا في عصورها الحاضرة، علها تتلافى ما وقعت فيه من أخطاء، وتتدارك شبابها قبل أن يفلت الزمام .

أثر العلم الشرعي على مسيرة الصحوة الإسلامية:

توحيد الله تعالى وعبادته على بصيرة وبينة: وهذا مما لا خلاف حوله، ولكن الذي لا بد لنا من التركيز عليه والتنبيه إليه ؛ أن هذه الأمة قد أتيت من تفسيرات وتأويلات لا يقبلها الراسخون في العلم، ولا تقرها قواعد الشرع والعلم، سواء كانت هذه التأويلات في التصور أو في العمل أو في المنهج. وليس الخطر في صدور مثل هذه التأويلات الضالة بأقل من خطر قبولها والترويج لها لدى شريحة واسعة من شباب الصحوة الإسلامية، مما يؤكد الحاجة الماسة إلى قاعدة علمية شرعية صحيحة لدى هؤلاء الشباب . ليس هذا وحسب، بل سيجعل من وجهة هذه الصحوة وجهة شرعية سليمة تنقاد لأمر الله وتسعى لنيل رضاه وتجنب سخطه، وتقدم مرضاته تعالى على مصالحها الشخصية ومطامعها الدنيوية . فلا تقصد بعد بتدينها منافع مادية، أو غايات رخيصة في ميزان الشرع الحنيف ، ولا تساوم في مبادئها وأصولها كما لا تأخذها في الله لومة لائم . هذا كله لا يتأتى دون التزود من معين العلوم الشرعية والنهل من ينبوع المعارف الإسلامية الأصيلة بدافع إيماني خالص.

اتباع منهج التعقل والتدبر والتفكير في التعامل والتفسير:

دعوة القرآن الكريم إلى التفكر والنظر والتدبر في الأنفس والآيات المبثوثة في الكون، وإلى الاعتبار والتذكر والاتعاظ من قصص القرون الخالية والأمم الغابرة – وهي دعوة جلية واضحة في كتاب الله عز وجل – تحقق فوائد أخرى غير الحصيلة العلمية الإسلامية ومجموع المعارف الشرعية والإنسانية والكونية، لا تقل أهمية عنها، بل هي في الحقيقة السبيل الموصلة إليها، هذه الفوائد هي اكتساب هذا المنهج العقلي الفكري – المهتدي بنور الشرع طبعا – في فهم الحوادث وتفسير الظواهر والربط بين الأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج.

لقد عانت الأمة طويلا من تحكيم العواطف، وعانت أكثر من تصرفات فات

أصحابها أن يزنوها بموازين الشرع الداعي إلى إعمال العقل والتدبر في الوسائل والمقاصد، والهادف إلى عموم المصلحة للفرد والمجتمع والأمة، وأصاب الصحوة الإسلامية من هذا ما أصابها، ولا ضير علينا أن نعترف بهذا إذ غايتنا الإصلاح بإذن الله تعالى. ولا يخفى أن من أبلغ الآثار التي نشأت عن تجنب المنهج القرآني في تفسير الظواهر وتحليل الأحداث – أيا كانت هذه الأحداث – هو العشوائية والتخبط وعدم الموضوعية، والبعد عن الإنصاف، حتى أن باعث الأفعال في الأمة صار الحماس والعاطفة لا المبدأ والثوابت إلا عند القليلين من المصلحين والعلماء الربانيين – بارك الله في مساعيهم .

فلا الغضب أو السخط، ولا الرضا أو الفرح، ولا الرغبة في الثأر أو الانتقام، ولا الانتصار للنفس، ولا غيرها من الانفعالات العاطفية النفسية هي من منهج القرآن في الوصول إلى تفسير سليم وفي الإعداد لحركة فاعلة مؤثرة في صنع الأحداث وكتابة التاريخ، نعم، لا يمكن إنكار دور العواطف في إيقاد الهمم، وإلهاب مشاعر الخير، وبث روح الغيرة على حرمات الدين ومقدساته، ولكن حين الحاجة إلى الفعل فلا بد من "التفكر" و"التدبر" و"النظر" وإلا لما أمكن تطبيق الهدي القرآني الوارد في قول الحق جل وعلا ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾[1]، وفي قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾[2] .

من هذا يتبين أن غرس ثقافة شرعية أصيلة في أنفس شباب هذه الأمة أمر لا محيص عنه إن نحن أردنا لهم القدرة على فقه واقعهم وإعداد العدة اللازمة للتعامل معه، لأن حاديهم حينها سيكون العقل المهتدي بنور الوحي وليس العاطفة والهوى، وسيتمكنون عندئذ من رسم إطار فكري قويم لمشروع حضاري يمكن لهم أن يسهموا

به في إنقاذ البشرية الحائرة . أما حين تتغلب العواطف وتبنى حركة الصحوة الإسلامية على دوافع نفسية فإن العاقبة ستكون إما إحباطا يأسر عليهم نفوسهم وعقولهم فيقعد بهم عن الدور المنوط بهم، وإما اندفاعا جائرا طائشا لا يلبث أن يثور حتى يغور، وينتثر عقد الأولويات ، ويتسنم أمر توجيه الصحوة الإسلامية جهال أو متفيهقون، وسيتم التنازل عن مبادئ الدين وأسسه شيئا فشيئا ليتحول بعد ذلك مشروع الصحوة الإسلامية الرامي إلى الإصلاح والأخلاق والإخلاص لله وحده ليتحول إلى برنامج سياسي أو اجتماعي أو أدبي أو غير ذلك مما لا اعتبار فيه إلا لغايات دنيوية عاجلة .

الوصول إلى خطاب إسلامي خالص لا مذهبي أو حزبي:

ليس من الحكمة للأمة الإسلامية في هذا الوقت بالذات أن يكون خطابها الإسلامي – لا الداخلي (مع الذات) ولا الخارجي (مع الآخر) – مصطبغا بصبغة مذهبية تعصبية، فمع تسليمنا أن التمذهب حقيقة واقعة، إلا أن روح التعصب للمذاهب لا ينبغي أن تطغى على الخطاب الإسلامي الدعوي الشامل لدى أبناء الصحوة الإسلامية ولا عند عامة المسلمين، فمصالح الأمة الكبرى، وأركان الإيمان والثوابت المتفق عليها كفيلة بجمع شتات هذه الأمة على كلمة سواء يمكن أن تخاطب بها غيرها، وقادرة بإذن الله تعالى على التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة على الأخوة الإيمانية، ولهذا يجب أن يترك متعصبو المذهبية إثارة ما يؤجج نار الخلاف، أو يثير حفيظة أتباع المذاهب الأخرى، ومن باب أولى أن يترك هؤلاء ما يخدمون به أعداء هذه الأمة من أمر تكفير طوائف إسلامية أو تضليلهم وإلحاق أبشع الأوصاف بهم، أو لمزهم واتهامهم بالباطل، فعاقبة هذا لا شك معروفة لا حاجة لنا إلى الإطالة فيها، وإنما أنقل هنا مثالا مما أجاب به عالم إباضي عماني عالما إباضيا ليبيا في القرن الهجري الماضي، فقد أرسل الشيخ سليمان باشا الباروني خطابا وجهه إلى ثلة من علماء الإسلام تضمن أسئلة طالما دارت في أذهان كثير من أبناء هذه الأمة، حيث قال في سؤاله : " هل توافقون على

أن من أقوى أسباب اختلاف المسلمين تعدد المذاهب وتباينه ؟ على فرض عدم الموافقة على ذلك فما هو الأمر الآخر الموجب للتفرق ؟على فرض الموافقة ؛ فهل يمكن توحيدها بالجمع بين أقوالها المتباينة وإلغاء التعدد في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الاتحاد؟ وعلى فرض عدم إمكان التوحيد فما الأمر القوي المنع منه في نظركم ؟ وهل لإزالته من وجه على فرض إمكان التوحيد فأيُّ طريق يُسهِّل الحصول على النتيجة المطلوبة ؟ وأي بلد يليق فيه إبراز هذا الأمر ؟وفي كم سنة ينتج ؟ كم يلزم له من المال تقريبا؟ وكيف يكون ترتيب العمل فيه ؟ وعلى كل حال فما الحكم في الساعي في هذا الأمر شرعا وسياسة ؟ مصلح أم مفسد؟ .. " فأجابه الشيخ العلامة عبد الله بن حميد السالمي – رحمه الله – بما يلي:

" قد نظرنا في الجامعة الإسلامية فإذا فيها كشف الغطاء عن حقيقة الواقع، فلله ذلك الفكر المبدي لتلك الحقائق، نعم، نوافق أن منشأ التشتيت اختلاف المذاهب وتشعب الآراء وهو السبب الأعظم في افتراق الأمة على حسب ما اقتضاه نظركم الواسع في بيان الجامعة الإسلامية، وللتفرق أسباب أخرى منها التحاسد أو التباغض والتكالب على الحظوظ العاجلة، ومنها طلب الرياسة والاستبداد بالأمر ،وهذا هو السبب الذي نشأ عنه افتراق الصحابة في أول الأمر في أيام علي ومعاوية [يشير إلى ما كان من التمرد على الخليفة الشرعي]، ثم نشأ عنه الاختلاف في المذاهب، وجمع الأمة على الفطرة الإسلامية بعد تشعب الخلاف ممكن عقلا مستحيل عادة، و إذا أراد الله أمرا كان، (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)، والساعي في الجمع مصلح لا محالة، وأقرب الطرق له أن يدعو الناس إلى ترك الألقاب المذهبية، ويحضهم على التسمي بالإسلام فـ(إن الدين عند الله الإسلام)، فإذا أجاب الناس إلى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية ولو بعد حين، فيبقى المرء يلتمس الحق لنفسه ويكون الحق أولا عند آحاد من الرجال ثم يفشو شيئا فشيئا حتى يرجع إلى الفطرة وهي دعاية الإسلام التي بُعِث بها محمد عليه الصلاة والسلام

وتضمحل البدع شيئا فشيئا؛ فيصير الناس إخوانا (و من ضل فإنما يضل على نفسه)، ولو أجاب الملوك والأمراء إلى ذلك لأسرع في الناس قبولهم، وكفيتم مؤونة المغرم، وإن تعذر هذا من الملوك فالأمر عسر، والمغرم ثقيل، وأوفق البلاد لهذه الدعوة مهبط الوحي ومتردد الملائكة ومقصد الخاص والعام : حرم الله الآمن، لأنه مرجع الكل، وليس لنا مذهب إلا الإسلام، فمن ثم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به وإن كان بغيضا، ونرد الباطل على من جاء به وإن كان حبيبا، ونعرف الرجال بالحق، فالكبير عندنا من وافقه والصغير من خالفه، ولم يشرع لنا ابن إباض مذهبا وإنما نُسبنا إليه لضرورة التمييز حين ذهب كل فريق إلى طريق، وأما الدين فهو عندنا لم يتغير والحمد لله ".

والسؤال والجواب من الوضوح والصلة بما نحن بصدده – في هذه الوريقات – بحيث لا يحتاجان إلى شرح أو تعليق، ومحاولة الشرح والتعليق تحتاج إلى دراسة مستقلة وإلى تمثيل واستشهاد يطولان . ولكني أترك القارئ ليجول فيهما بفكره وينظر في وضوح الجواب وواقعية ما فيه من حلول ومقترحات .

التمسك بالأخلاق والقيم الإسلامية :

إن ما يدعو إليه الإسلام من أخلاق ومعاملة بالحسنى لا يتأتى الالتزام به إلا بالعلم به أولا، فلذا كان من ثمرات ربط الصحوة الإسلامية بالعلوم الشرعية الرصينة بث روح الأخلاق والقيم في شباب الأمة، فالعقيدة تجعل من الأخلاق موضع ثواب وعقاب، والفقه يبين للنفس ما لها وما عليها فعلا وتركا، والسنة تضع معالم الأخلاق وتهدي إليها بالأمثلة الحية من سيرة الرسول(ص)، والتاريخ يحكي أمثلة أخرى من القدوة الصالحة، والأدب يهذب النفوس ويعلم الشجاعة والكرم والأخلاق ..الخ.

وبالمعاملة الحسنة – المتحصلة من التعلم والنهل من مصادر الأخلاق في الكتاب والسنة – يمكن للصحوة الإسلامية أن تبلغ شأوا بعيدا، فتفتح مغاليق القلوب، وتقرب بين الناس، وتمهد الطريق لخطاب إسلامي عالمي، وما أحوج شباب المسلمين

اليوم إلى القيم المثلى والأخلاق الإسلامية الحميدة التي لا يبتغى بها غير وجه الله وحده (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا × إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا).

أسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير وأن يبارك في جهود المخلصين إنه على كل شيء قدير والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

١ ـ النساء/ ١٣٥.

٢ ـ المائدة/ ٨.